مفهوم الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر

د. نورة عابد

مخبر الفلسفة وتاريخها – جامعة وهران 2

لعل من بين ما يميز المجتمع المعاصر والمجتمعات التقليدية، الشرقية منها و الغربية على حد سواء هما الحرية و الفردانية.[1] إذ أول ميزة للمجتمع الإنساني الحديث و المعاصر خاصة في الغرب الرأسمالي هي تلك المتمثلة في قيامه على الحرية و على المساواة من جهة ، و على تراتبية la hiérarchie مكوناته من جهة أخرى. و من هنا حركية و تطور مثل هذه المجتمعات بالنسبة للمجتمعات التقليدية التي سبقتها، و كذلك تقدمها المتواصل على مختلف الأصعدة خاصة الفكرية و السياسية و الاجتماعية والعلمية و التقنية. و ثاني ميزة للمجتمع الحديث و المعاصر تلك المتمثلة في قيامه لا على الدين la religion، أو على الفئوية les castes، بل على الفردانية l'individualisme، التي تحولت عكس ما كان الحال بالنسبة للمجتمعات التقليدية إلى المحور الأساسي الأول الذي يدور حوله نشاط المجتمع، ومن هنا تحول الفرد و حقوقه ممثلة بصورة خاصة في الحرية السياسية منها و الدينية ، و الاقتصادية منها والأخلاقية، إلى العوامل المحركة لكل نشاط في هذه المجتمعات الحديثة و المعاصرة، و إلى أهداف نهائية لمثل ذلك النشاط. و منها أيضا اختلا ف المقاربات لمثل تلك الفردانية، و لتلك الحرية و غيرها، من الحقوق التي أصبحت مرتبطة بها في المجتمع الليبرالي الحديث عامة، و المعاصر خاصة، عن المقاربات التقليدية لها.

وعليه ، لا يوجد تعريف جامع مانع لمفهوم الفردانية , إذ تشتق كلمة فرد l'individu من اللاتينية individium و هي تعني الجزء الذي لا يتجزأ . وهذا يؤسس لقيام مفهوم الفردانية على مبدأ الكينونة التي تمتنع على التجزئة و في هذا السياق يبين قاموس دورات d'Auzat إن هذه الكلمة ظهرت عام1826 في جريدة globe الباريسية كنقيض لكلمة اشتراكية socialisme. ويأخذ مفهوم الفردانية صورته الاشتقاقية من المفهوم اللاتيني individualisme مما يعني أن المفهوم يقابله مفهوم الجمعنة . و علماء الاجتماع يقارنون اليوم بين مفهوم

الجمعنة (ويعني الحالة التي يكون فيها الفرد صورة نسخة متكررة عن الجماعة التي ينتمي إليه sociabilité) و بين مفهوم الفردانية .

فالفردانية هي الحالة التي يكون عليها الفرد كيانا مستقلا و متفردا عن الجماعات التي ينتمي إليها و قادرا على اتخاذ قراراته استنادا إلى إمكانياته الخاصة و قدراته المستقلة عن أفراد الجماعة الآخرين الذي ينتمي إليهم الفرد . كما أنها نزعة أو سلوك يؤكد على الخصائص الذاتية للفرد و على سماته ومميزاته الخاصة و ذلك بما يتعارض مع ما هو جمعي و عام و مشترك و هذا يعني أن الفردانية تؤكد ما هو خاص و متفرد - هذا يعني أن الفرد وفقا لمفهوم الفردانية كائن إنساني يمتلك وحدته الداخلية ويؤدي وظيفته كنسق و نظام متكامل و يمتلك استقلالية خاصة في دائرة الوسط الذي ينتمي إليه.[2]

كما ترمز الفردانية إلى واقع اجتماعي و ثقافي يستطيع فيه الناس بوصفهم أفرادا اختيار طريقة حياتهم وسلوكهم و ممارسة عقائدهم كما ترمز إلى مجتمع فيه النظام الاجتماعي و القضائي وحماية حقوق الناس بوصفهم أفرادا غير مكرهين على التضحية أو التنازل عن شيء يعتقدون به .[3] فالفردانية من العالم الذي يمتلك فيه الإنسان نفسه و يسيطر على وجوده بحرية مؤكدة على نحو لم يعهد في المجتمعات التقليدية القديمة فقد حررتهم الفردانية من اكراهات الماضي و طغيان الشموليات الأسطورية القديمة يختلف مفهوم الفردانية عن الفردية أو الذاتية التي تنضج الأنانية ، فالفردانية في صورة الإنسان الذي يتميز عن الجماعة أو الآخرين بطرق تفكيره و عمله و نظرته للوجود و هي حالة من إعطاء الفرد سمات وخصائص شخصية يتفرد بها و يكتسب عبرها هويته المتميزة . إلا أنها لا تعني الفردانية من جهة أخرى ، التفرد والانفراد أو العزلة و التضاد مع ما هو اجتماعي.. بل تعني أن الفرد يكتسب خصائص يتميز فيها عن الآخرين في سياق التعاون و التكامل الاجتماعي . " فالفردية مؤشر حضاري يجسد حالة التطور التي استطاع المجتمع أن يحققها ثقافيا و اقتصاديا و اجتماعيا"[4]. وهي خاصية من خصائص التطور الاجتماعي وهي خاصة تتجسد في قلب الحياة الاجتماعية للمجتمعات الحديثة و المعاصرة و على خلاف ذلك فان الجمعية collectivité تعد خاصة أساسية من خصائص

المجتمع البدائي حيث يكون الفرد مجرد صورة عن الجماعة التي ينتمي إليها. و من هذا المنطلق يمكن القول بان الفردانية تؤكد على أهمية نمو الفرد و ازدهاره و تأصيل قيمته الخاصة و قدراته المميزة في مواجهة مظاهر التماثل والتجانس التي تأخذ مداها في النماذج الشمولية القائمة عبر التقاليد و التسلط . في هذا المعنى و السياق تؤكد الفردانية الأصالة و التفرد إزاء التماثل و التطابق.

الفردانية في الفكر الفلسفي :

إن الفردانية بتأكيدها على الخصوصية و التفرد و الأصالة , لم تعرف في المجتمعات البدائية القديمة أو حتى في المجتمعات الإقطاعية , فالمجتمعات القديمة تُعرف بدرجة عالية من التماسك و التضامن حيث يلفظ و يستبعد أي فرد يسعى إلى التفرد و التميز و الاستقلال عن الجماعة . فاليونان مثلا رغم ظهور الديمقراطية و تأصلها عندهم إلا أنهم أهملوا الجوانب الإنسانية.. لقد كانت الحرية حكرا على الطبقة الارستقراطية رغم وجود الديمقراطية، إلا أنهم لم يسمحوا للفرد بالخروج على معايير الجماعة وقيمها و عاداتها و أعرافها. و قد تجلت هذه الحقيقة في إعدام الفيلسوف سقراط الذي حاول أن يعبر عن رأيه بحرية , فأُدين من قبل المجتمع الإغريقي و نفذ فيه حكم الإعدام و هو حكم بإعدام الحرية الشخصية. " فالإغريق رغم تأصل العقل و الديمقراطية لديهم، لكنهم أهملوا الجوانب الداخلية للإنسان.

لقد طرح الإغريق السؤال المركزي:" ماذا نعرف ؟ , وأجابوا عن هذا السؤال بمنهجية تفرض نفسها حتى العصر الراهن لكنهم أبدا لم يطرحوا السؤال: من الذي يعرف ؟ , أومن نحن ؟"[5] بمعنى أنهم تجاهلوا الذات العارفة و أكدوا على أهمية موضوع المعرفة بذاتها و هذا يعني أن بلاد الإغريق لم تهتم الفرد اذ الحرية كانت حكرا على بعض الفئات الاجتماعية الارستقراطية . و مع وجود هذه الحرية إلا انه لا يسمح للفرد الخروج على معايير الجماعة و قيمتها و عاداتها و أعرافها و تقاليدها.

الفردانية في العصر الوسيط والحديث:

لقد عرفت المجتمعات الغربية المسيحية مفهوم الفردانية في العصر الوسيط أيضا , و لكنه لم يبلغ غاية نضجه و لم يصل إلى تمام كماله ." بل غالبا ما كان يحمل هذا المفهوم مضامين سلبية تتعلق بالرغبات و الميول و النزاعات الأولية الفردانية". [6] فالفر دانية بهذا المعنى تتويجا لمعاني السلبية الفردانية التي كان المجتمع يحاربها من اجل الصفاء الروحاني و الكمال الأخلاقي . لقد و لد مفهوم الفردانية في أقفاص الإدانة و الاتهام إذ ما يتميز به الفرد بوصفه كيانا مستقلا هو ما تجب إدانته حتى و إن كان يأخذ اتجاهات خيرة و نبيلة حيث تقضي أخلاق هذه المجتمعات تحرير المجتمع من الامتيازات الفردانية التي يجب التخلص منها. و يمكن القول أن المسيحية اكتشفت الفردانية و إدانتها في الوقت نفسه بوصفها حالة سلبية غير أخلاقية تهدد المجتمع و تقوض درجة تماسكه . لقد نادت النهضة في بدايتها الأول بإعطاء الحرية الذي يسمح للفرد أن يقرا ما يشاء و أن يصور الفنان ما يختار ، و ان يجهر الفيلسوف بما يعتقد.. فأعلنت أن الفرد صار غاية في ذاته ناقدا شكاكا متشوقا للمعرفة.

وعليه، إذا كانت الفردانية تشكل واحدة من الأسس الكبرى لكل من الليبرالية و من البراغماتية فان النتائج المفتوحة لمثل هذه الفردانية هي الحرية و الديمقراطية، في معناهما السياسي أولا و الاقتصادي والديني و الأخلاق بعد ذلك . و الحديث عن الحرية الفردية أو الفردانية يقودنا إلى جذور هذه الحرية السياسية، و هي الجذور التي تشير فقط إلى أنها تبدأ بالقطيعة مع الكنيسة، و ذلك مما قد يعرف بالإصلاح (la réforme) و تنتهي بالنظريات الدينية التي توالت بعد هذا الإصلاح و لا تزال تتوالى إلى اليوم، و التي يمكن تلخيص محاورهما في محورين:

نظرية الحق القانوني أو السياسية الذي مثله "توماس هوبز tomas Hobbes" 1588-1679 من خلال مقولته الشهيرة " اللفيتان" (Léviathan) و نظرية الحق الطبيعي le choix naturel او نظرية المونوقراطية la théorie monocratique فرويد و جون جاك روسو، أي النظرية الجمعية الديمقراطية و ذلك من خلال موقفه المعروف " العقد الاجتماعي" le contrat social . [7] و إن كانت نظرية الحق

القانوني أو السياسي توصف بأنها نظرية استبدادية لأنها لا ترى للفرد أو للفر دانية من تقدم اجتماعي أو سياسي إلا من خلال تقدم أو انبعاث الدولة و خضوعه لها أولا لتشكيل حياته السياسية و لضمان أمنه، فان نظرية العقد الاجتماعي أو التعاقد المولد لها من خلال ما اسماه "روسو" بالإرادة العامة la volonté générale، توصف بدورها بأنها إرادة مجردة مثل مفاهيمها هذه حيث الإنسان يولد عبر التاريخ و من خلال المجتمع المتواجد فيه، و ليس عن طريق عقد يسيق المجتمع. و لذلك فان نظرية العقد هذه لم تفرق بين المجتمع و بين الدول كما يضيف البعض من نقادها.[8] لقد وُجد مفهوم الفردانية في مراحل لاحقة داخل حقل الرعاية الفلسفية الأوروبية مع هوبزHobbs ولوك Locke و الرعاية الأمريكية مع آدم سميث Smith باعتبارهم طلائعيين في تناول مفهوم الفردانية بالدراسة و التحليل . و هم في أطروحاتهم كانوا ينظرون إلى الإنسان في دائرة تفرده و يقابلون بينه و بين الدولة .[9]

و في عصر التنوير بدءا من القرن 18 أضيفت عطاءات فكرية شكّلت مهدا لتطور مفاهيم شتى لكل من الفردانية و حقوق الإنسان . لقد عمل مفكري التنوير على تحرير الإنسان عقلا و فكرا وممارسة و انتماء . فالعقل كما كانوا يعلنون باستمرار هو أداة المعرفة الشخصية و الفردانية في دائرة الحرية تشكل مبدأ الإبداع و العطاء الفكري بمختلف تجلياته . فإعلان حقوق الإنسان في عصر التنوير يؤكد على أهمية الفرد و الفردانية لكن لم يصل هذا المفهوم إلى مستوى الوضوح الذي يتجه إليه و بالتالي فاعلان حقوق الإنسان يفتح المجال لكل فرد أو مواطن بان يمارس حقه في الوجود و ان يعيش حياته بوصفه كينونة اجتماعية متفردة و حرة . و قد استطاعت فكرة الفردانية أن تتقدم و تقدم حضورها المتزايد بصورة متناسبة طردا مع تراجع أهمية الدين و انحسار قوته في الحياة الاجتماعية في اروبا الغربية .

و في القرن 19 تزدهر الفردانية و تحقق فتوحات فكرية خاصة في مجال الفن و الأدب الرومانسي الذي شكل الحقل الاكثر أهمية في مجال الإبداع الفردي و قد تبلورت هذه الفردانية في المستوى الاقتصادي و الاجتماعي مع الانتصار المتنامي للرأسمالية و الطبقة البورجوازية إلا أن "رغم هذا التقدم بقيت تواجه

فيضا من القيم و الأفكار المناهضة لها مثل :التبلور , و المحرم و ميتافيزيقا التفكير وعقليات ما قبل الحداثة ".[10] و لقي مفهوم الفردانية أيضا تطورا و ازدهارا في المجال السياسي كما تجلت أهميتها أيضا في مجال البيولوجيا التي أكدت في مجال اكتشافاتها حالة التفرد التي يتميز بها كل إنسان . لقد بينت البيولوجيا انه لا يوجد في الكون خليتان إنسانيتان متطابقتان ، و بناء على ذلك، لا يمكن أن يوجد شخصان متماثلان بالمطلق في العالم بأسره ، و لا تقل الأهمية التي عرفها مفهوم الفردانية في مجال علم النفس والتحليل النفسي.

و في مجال العلوم الإنسانية بصورة عامة، فالاختلاف بين الأفراد يتجلى أيضا في الحياة الاجتماعية والتربوية و يشمل عادات الافراد و قيمهم و قدراتهم و سلوكا تهم و ردود أفعالهم. فالسمات التي ينفرد بها كل كائن أنساني تؤكدها عقلانيات المجتمعات الحديثة ، " فالحداثة اضافت للفردية بعدا جديدا يتمثل في الوضعية التاريخية لكل فرد و الحالة الخاصة لمستوى تطوره ، فالفرد وفقا لهذه الرؤية لا يختلف عن الآخرين وفقا لوضعيته القائمة فحسب، بل يختلف عنهم أيضا باختلاف سيرته الحياتية و شروط تطوره النفسي و الاجتماعي ".[11] فالإنسان الفرد نتاج لشروط معقدة بالغة التنوع في مستوياتها الاجتماعية والنفسية. و من هنا فسلوك الإنسان يدرس علميا بأسبابه . و على هذا الاساس المجتمعات الحديثة المنحرف يصلح و لا يعاقب أو يعذب، لان هذه المجتمعات تأخذ بعين الاعتبار منظومة الشروط الاجتماعية و النفسية و تحديد الطابع و المسؤولية لا تعزى إلى الفرد وحده بل هي أيضا مسؤولية الجماعة و المجتمع .

عوامل قيام الفردانية :

عاش المجتمع الرأسمالي منذ نهاية القرن 19 إلى غاية منتصف القرن 20 سلسلة من الأزمات الاقتصادية و السياسية و رافق تلك الأزمات انهيار مذاهب فلسفية و صعود مذاهب و تيارات متعددة وكان هي معظمها تعبيرا صارخا عن ازمة الإنسان في المجتمع الرأسمالي، حيث شعر الإنسان بالضياع و عانى من انواع الاغتراب . مثلا : اغترابه عن منتوجاته ووسط مجتمعه الذي صار لا يعيره اي اهتمام. فهو آلة تعمل ضمن ملايين الآلات البشرية في المعامل و المصانع يستغلها الرأسماليون، و اداة قتل يستعملها الاستعمار في حروبه التوسَعية سواء

داخل أو خارج حدود اروبا. لقد لاحظ الإنسان والفلاسفة بشكل خاص ضياع الإنسان، كما لاحظوا التغير السريع للقيم و المعتقدات السياسية. فهو عصر الازمات و مرحلة ولادة روح جديدة.. و هكذا شعر المفكرون و الفلاسفة بأفول الحضارة الغربية وأفول المذاهب العقلانية التي كانت سائدة حتى منتصف القرن 19 ." فحملوا معاول الهدم لتحطيم تلك المذاهب التي شكلت قيودا للروح الإنسانية و شلت إرادة الحياة حيث أدخلت ضمن علاقات موضوعية وتاريخية و حتمية".[12]

لقد أرادت الفلسفة المتمردة الثائرة أن تهدم الفكر السائد و أن تؤسس على أنقاضه فكرا جديدا يعيد الإنسان مكانته في التاريخ . و يعيد للإنسان ذاته التي فقدت فكانت معظم تيارات الفلسفة المعاصرة تؤذن بمجيء قوى طليعية جديدة حاملة لواء المذهب الإنساني و قد مثلث قوى متعددة و تيارات مختلفة . ومن ثم شهد القرن 19 روح عصر جديد يسعى إلى خلق فلسفة جديدة عن طريق تفتيت النتيجة التي انتهت إليها الهيجلية. و تمثلت هذه الروح في تيارين لا يزالان يتقاسمان الإنسان المعاصر حتى يومنا. و هي **الوجودية** التي ترتكز أساسا على الفرد . و **الماركسية** التي ركزت اهتمامها على الحياة الاقتصادية والاجتماعية للإنسان. فالتيار **الأول** ذاتي فردي و داخلي. و التيار **الثاني** موضوعي جماعي و خارجي. فالماركسية تجاوزت الهيجلية بتأكيدها على منهج مادي تاريخي و نادت بالحرية و المساواة امتدادا لمبادئ الثورة الفرنسية والثورات الاشتراكية التي تلتها . لقد دعت الماركسية إلى تحرر الإنسان من الاغتراب المادي الذي يعيشه و من الاستقلال الاقتصادي و السياسي و الاجتماعي. و " لكن في هذه الأثناء ظهرت تيارات فلسفية جديدة رفضت الماركسية لأنها أدخلت الإنسان في اغتراب جديد و رأت فيها امتدادا منطقيا للنزعة الجماعية التي سادت حتى نهاية القرن 19. فظهرت فلسفة الحياة و يمثلها " دالتاي " و" نيتشه "و " اشبنجلر " و "برغسون ."

أرادت هذه الفلسفة التأكيد على أولوية الحياة على العقل "[13]، فالعقل عندها يتعارض مع الإرادة لان العقل موضوعي و الإرادة تمثل الجانب الذاتي للإنسان . و لهذا أنشئت هذه الفلسفات اتجاها فكريا ضد هذه المذاهب

العقلانية و الآلية و الحتمية و رفضت عبودية المجتمع على الفرد الإنساني مؤكدة على إرادة الحياة هي هدف الإنسان . فقلبت الفكرة الهيجلية رأسا على عقب . لقد رأت الماركسية أن هيجل جعل الإنسان يمشي على رأسه، و رأت انه لابد من إعادته يسير على رجليه فاهتمت بالبنية التحتية للحياة الإنسانية . و في هذا الأمر رفضت فلسفة الحياة ورأت أن ما يحرك الإنسان و يدفعه إلى التقدم والارتقاء ليس رأسه و لا رجليه، بل عواطفه و انفعالاته و اعتقاداته . و في النهاية إرادته التي تمثل إرادة الحياة. و على دروب نيتشه و دروب فلسفة الحياة تظهر البراجماتية لتؤكد الاتجاه نفسه الذي أكدته فلسفة الحياة فيؤكد "وليم جيمس على " الإرادة والفردية. [14] و أكد على دور الاعتقاد و العاطفة برفضه لمختلف أشكال الحتمية.

لقد حاول فلاسفة الحياة وفلاسفة البرجماتية ان يرجعوا الانقسام بين الذات و الموضوع إلى شيء يسبقهما معا و هو الحياة. و ان يفسروا العالم المتموضع باعتباره " سلبا ذاتيا للحياة الخلاقة " من بين هؤلاء الفلاسفة دالتاي , برغسون , وليم جيمس . [15] ففلسفة الحياة و الفلسفة البراغماتية ، فلسفتان فرديتان يشكلان صرخة الإنسان ضد الاغتراب الذي يعانيه المجتمع الرأسمالي و ضد التهميش الذي يمارسه المجتمع ضد الفرد . وعلى خطاهما تظهر فلسفة إنسانية و فردانية جديدة تؤازر الاتجاهين السابقين، إنها الفلسفة الوجودية . إذ يعتبر B.CONSTANT المرجع الأول و الرئيسي لكل الدراسات التي تتناول الفردانية إذ يقيم تمييزا بين ما يسميه بحرية القدماء و حرية المحدثين. فبالنسبة لحرية القدماء يعود CONSTANT إلى الديمقراطية اللاتينية ليظهر في نهاية المطاف أن الفرد لم يكن موجودا إلا إيديولوجيا ولم تكن للفرد في عهد الإغريق أية استقلالية سواء على مستوى الرأي الحر ، أو الاعتقاد الديني ، كان هناك غياب تام للفرد و فردانيته كانت كلها موظفة من اجل التكوين الاجتماعي . و الحرية الفردية لدى الإغريق كانت حسب CONSTANT لا تنفصل عن الحرية الجماعية و يصعب بأي حال من الأحوال الحديث عن أي شكل من أشكال حرية الفرد خارج إطار الجماعة .

مع بداية العصر الحديث و ظهور البورجوازية بقيمها الجديدة تنبثق حرية المحدثين التي يحددها CONSTANT على النحو التالي : " لأي شخص الحق في ألا يخضع إلا للقوانين المتفق عليها ، ألا يقمع ، ألا يعدم أو يساء إليه بأي شكل من الأشكال.. و وفقا للإرادة الاعتباطية لشخص أو مجموعة أشخاص ، لأي شخص الحق في التعبير عن رأيه، في أن يختار مهنته أو حرفته و أن يمارسها ، في أن يتصرف في ممتلكاته ، في أن يتحول دون مراقبة مسبقة لنواياه أو دوافعه ، لأي شخص الحق في أن يجتمع مع أشخاص للحديث عن مصالحه أو لترويج الطقوس التي يتبناها هو و شركاؤه أو لمجرد التسلية ، أخيرا لأي شخص الحق في أن يؤثر على سياسة الحكومة ". [16] إنها الأرضية الأولى للفردانية المعاصرة التي تعني الانسلاخ أو التحرر من سلطة الجماعة . وإلا لما وجد هناك فرق بين الأنانية والفردانية اذ الأنانية تشير إلى نوع من المحايثة الانطولوجية في حين لا تتجاوز الفردانية ما هو مكتسب تجريبيا.

ثالثا: أشكال الفردانية :

هناك نوعان من الفردانية ، **الفردانية المعبرة عن الفرد** l'individu باعتباره العينة المثلى échantillon للنوع الإنساني و باعتبارها موجودة بأشكال مختلفة في كل مجتمع إنساني.[17] وهناك الفردانية المناهضة للشمولية le holisme و للحشد و المرتبطة بالأنا(ego) و بالذات (sujet)وبالفردية (l'individualité)..أي مميزات الفرد و بالشخصية la personnalité **الفردانية الأخلاقية** : أي المعبرة عن الفرد ,ككائن مستقل و حر بقطع النظر عن تواجده أو عدم تواجده.

الفردانية و الجمعنة :

الفردانية لا تعني الأنانية و النرجسة و العزلة فالسمات الخاصة بكل فرد تشكل منطلقا لعملية ازدهار الجماعة . فالفرد المبدع يوظف طاقاته في خدمة الجماعة . و هذا يعني ان الخاص لا يتعارض مع العام الاجتماعي بل يتكاملا بصورة موضوعية و التوافق بين الفرد و الجماعة يشكل منطلق النهوض الحضاري للمجتمعات الإنسانية القديمة و المعاصرة . و بما ان الإنسان اجتماعي

بطبعه و لا يمكنه ان يكون خلاف ذلك ، هذا يعني ان الجانب الفردي في الجماعة لا يتعارض ابدا مع الجانب الاجتماعي . وهذا ما يعبر عنه دوركايم بقوله: "ان في كل منا كائنان : كائن فردي يعبر عن منظومة الميول إلى الفردانية التي تخص الفرد دون ان يشترك فيها مع الجماعة ، و كائن اجتماعي يمثل جميع الحالات والاتجاهات و القيم التي يشترك فيها الفرد مع الجماعة ".[18]

كما أن هناك جانب آخر في الفردانية يتمثل في الجسد، فالفردانية ليست تحرير النفس و المشاعر فحسب ، بل هي تحرير للجسد أيضا . فامتلاك الجسد يعني الحق في الحياة و الصحة. و هذا يعني أيضا ان هذا الجانب يشكل منطلق حقوق الإنسان الخاصة بالفرد . فالحداثة دونت للإنسان حقوقا وبفضلها اصبح لهذه الحقوق تقاليدا و اعراف دولية و فكرية و سياسية , فالحداثة أوجدت المدونات الحقوقية و شيدت المؤسسات السياسية و الاجتماعية القائمة على حقوق الإنسان و أُوصلت هذه الحقوق على صورة قيم أخلاقية إنسانية تجري في الوعي و تأخذ طريقها نحو الروح . لقد بلغ تقدير الفردانية والاعلاء بشان الفرد الحد الاقصى في الحضارة المعاصرة ، فالفردانية تتضمن منظومة من الحقوق الفردانية مثل : الاختيار الحر للمهنة ، اختيار الزوجة و مكان السكن ، حرية التملك و حرية الاعتقاد ..... الخ . و مثل هذه الحريات لم تعرف في المجتمعات التقليدية القديمة أو ما ينحوا نحوها.

و بمعنى آخر ان الفردانية تتضمن نسق من السلوكات الخاصة و الحريات و المكاسب الاجتماعية التي تعلي من شان الفرد و كرامته و حريته ، و لا يمكن للإنسان المعاصر ان يعيش من غيرها . و هي عطاءات تؤكد أولوية الفرد عن الجماعة . و على الرغم من اهمية العطاءات التي منحت الإنسان بوصفه فردا فان الفردانية ليست للروح الجماعية ذلك "ان الروح الجماعية هي في النهاية نتاج و عطاء لتفاعل الافراد الذين يشكلونها و بالتالي فان المجتمع يكون قويا اذا كانت مكوناته الفردانية قوية و متماسكة".[19] و عطاء كل فرد يثري و يغني المجتمع و خاصة اذا استطاعت الجماعة ان تستثمر التنوع و التفرد والجماعات التي لا تحترم خصوصيات أفرادها و تفرض عليهم واجبات و متطلبات تتجاوز حدودهم وطاقاتهم. هي جماعات تعاني العقم في مختلف

مستوياتها و تجلياتها . " فالفردانية أصبحت في المجتمعات المعاصرة حتمية تاريخية و حضارية تعادل من حيث المبدأ حتمية الحداثة نفسها ، ذلك انها تتجه نحو ازدهار الإنسان ونمو القدرات الطبيعية الخلاقة لديه".[20]

وفي الأخير، نلاحظ إن مثل هذه التحديدات للعديد من النظريات الفلسفية خاصة لمفهوم الفر دانية و هي تحديدات ضبطت مع "جون لوك" و "دور كايم" Durkheim 1858-1917 ، و مثلها اليوم جون راولز J'Rawls 1921-2002 و غيره، هي بمثابة دعامة لمولد حقوق الإنسان les droits de l'homme خلال الإعلان العالمي لحقوق الانسان1948 و لكل ما شهدته هذه الحقوق من تطور وتوسع. و النتيجة الأولى التي نخرج منها من مثل هذه المفاهيم المتعارضة أحيانا ، الفلسفية و السياسية للفر دانية و للحرية الفردية و للديمقراطية في مفهومها الليبرالي الجديد ، السياسي منه و الاقتصادي القانوني . تفتح الباب دون شك على مصراعيه أمام الطغيان أو الاستبداد السياسي منه والاقتصادي، الديني و الأخلاقي. لذل نجد أن نظرية "الإرادة العامة" أو "العقد الاجتماعي" ، هي التي لاقت قبولا من طرف الليبرالية و الليبراليين ، لا على مستوى مقتضيات تلك الفردانية فحسب، و هي المقتضيات المتمثلة خاصة في الحرية وفي الحق في الملكية الفردية بل و على مستوى الدولة l'état . كذلك التي لا تصور الحديث عن اي حرية في غيابها نظرا لأنها هي المحددة أو المنظمة كما نعلم لمثل تلك الحريات بين الافراد داخل المجتمع و الحامية مبدئيا لها كذلك.

هوامش:

[1] Louis dument essai sur l'individualisme, seuil, paris, 1991, introduction

[2]- Louis Dument; Le Concept Moderne de Lindividu; Revue ;fevrier ;Paris;1978.

[3]- CHARLES TAYLOR , les malaises de la modernité , C,E,R,F , paris 1999 p19.

[4] - حسن الكلاني ،الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر ،مكتبة مدبولي ،الطبعة الأولى ،2004،ص،122.

5-CHARLES TAYLOR. Ibid. LES MALAISESDE LA MODERNITE C,E,R,F.PARIS ,1999,P15

[6] حقي اسماعيل بربوتي فلسفة الليبرالية و الاشتراكية في حقوق الانسان ،الوحدة ضمن المجلس القومي للثقافة العربية العددان ،63،64،ديسمبر ،يناير ،1990،ص،51.

7- l. dumant: revue esprit, essais sur l'individualisme, pp 128-129

8 - E. Barker : social contrat, fondons, oxford université presse, 1947. p95

9- Ibid .p 96

[10] فؤاد كامل ،الفرد في فلسفة شوبنهاور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة ،1991،ص،36

11- Audard C; Qu es que le libéralisme ? éthique politique; société, Gallimard, Paris 2009,p52.

[12] - حسن الكلاني ،الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر ، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى 2004 ،ص،87.

[13] زكي نجيب محمود ،من زاوية الفلسفة ،دار الشروق ،القاهرة ،1989،ص،24.

[14] - بول تيليش : الشجاعة من اجل الوجود بدون طبعة ، ترجمة كامل يوسف حسين ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع . ص 121

16- Luc Ferry ; Alam Renas, Itinéraires de l'individu,1987,pp,67,68.

17- Louis ; Dument LE CONCEPT MODERNEDE LINDIVIDU REVUE PARIS FEVRIER

[18] - اميل دوركايم، التربية والمجتمع ،ترجمة علي وطفة ،دار المهد دمشق ،1990،ص،99.

[19] - نفسه،ص،122.

[20] بول توليش، الشجاعة من أجل الوجود، مؤسسة شباب الجامعة ،الاسكندرية ،1996،ص،83.